

العصمة في القرآن

عقيدة العصمة:

إن العصمة هي نور الإمامة، ودليلها، والقدرة العجيبة التي ينفذ الإمام بها في قلوب الناس، ويمتنع التصور للإمامة من دون العصمة — لدى الإمامية من المسلمين — إذ أن للإمامة خصائصاً ضرورية تجمعها العصمة من: الطهارة، والبراءة، والعلم، والحلم، ودعم النظام...

طبقاً للشكل الذي شرحه الإمام علي بن موسى الرضا صلوات الله عليه.

فمن يريد أن يتعرف على العصمة يجب أن يتعرف على الإمامة أولاً؛ لأن العصمة هي قانون الإمامة فما نجدها لدى البعض من إخواننا السنة ومنهم الأستاذ حسن فرحان الذي يسجل شيئاً من الإعجاب بالشيعة والتشيع ويعترف بالإنجازات الكبيرة لهم لكنه في عين الوقت يقول بأن الشيعة لديهم مصيبة وهي الغلو، وأن أبرز علامة للغلو لديهم — حسب رأيه — هي العصمة ..

ولقد قال في بعض كتاباته أن الأسماء التي حصرها الشيعة هم أئمتي أيضاً، ولكنني لا أقول بعصمتهم لأن دعوى العصمة فيهم غلو؟!!

وإننا نقول لأخينا الحفي أننا لم نجد فيما فتشنا فيه من صفحاتك القيمة أي بحث يتصل بالإمامة، بحثاً يقارن بين النظريات الكلامية ويُحَكِّمُ الكتاب والسنة، وهذه فجوة وخلل منهجي لأنك قبل أن تجلي حقيقة الحال في الإمامة لن تعرف مهمة العصمة ..

إن عقيدة العصمة على قسيمين:

1- العصمة في التبليغ وقد أعترف الشيعة والسنة أن النبي والرسول صلى الله عليه واله يجب أن لا يفرغ بلسانه إلا عن الله عز وجل في مقام التبليغ والدعوة .

2- العصمة التي تشمل التبليغ وغيره وقد أعترف بها الشيعة وتاهت فيها كلمة الآخرين فهناك من يلتقي مع الشيعة وهناك من يختلف معهم وهناك من يوافق أهل الكتاب في أن النبي والرسول يجوز عليه كل المعاصي حتى الكبائر، بل ربما لم يتضح عند هذا القائل الفرق بين مقامي التبليغ وغيره؟!!

العصمة من منصة عقلية:

يرى الشيعة أن من قضاء العقل وجوب أن يكون الإمام معصوماً ولو جازت عليه المعصية لنفرت منه النفوس ولتعامل الناس معه بمشاعر النفرة والقرف وهي حالة نفسية تأخذ ثلاث درجات:

أبسطها: أن يمارس الناس وأفراد الأمة مع وليهم وإمامهم دور النهي عن المنكر فينهونه ويزجرونه ويعنفونه في القول وقد يمارسون معه الأكثر من ذلك؛ لأن وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأخذ منحاً تصاعدياً ولو ضرباً بالسياط على ظهره حسب طبيعة الأشياء ..

والنهي عن المنكر وليد الشعور بالقرف والتقزز لأن من ينهى عن شيء فقد استشعر قبحه .

ويفوقها صورة أخرى وهي: التبرؤ منه نحو ما يتبرأ أهل السم والاسقامة من العصاة والفساق ..

إذن لو جازت المعصية على الإمام لجاز أن يتبرأ منه أفراد أمته، وهذا نقض للغرض فإن الإمامة نظام للدين وإذا جاز تحقق التفرق عنه فإنه لن يضمن النظام للدين؛ لأن الإمام مسطرة إذا انثلمت أو اعوجت فلن تستقيم الصفوف الاجتماعية !!

وأخطرها: أن الإمام قد يقضي بحكم أو يتحرك بدور معين ينقض النظام فيوجب الاختلاف الشديد في الأمة وهذا هو أخطر أنواع النفرة، وكمثال للإمامة التي قد سُميت الأمة هي خلافة عثمان بن عفان حيث أنه اختص بسياسة معينة قدم فيها بني عمومته وجعلهم على رأس الهرم وتسامح معهم في الكثير من الجوانب المالية والسياسية... كما هو مذكور عند المؤرخين مما كون ثورة واسعة على إمامته، بل إن الأمة بقي انقسامها على مدى أجيال ولأكثر من قرنين حتى أن بعض أعلام القرن الثالث كالجاحظ كانوا يصنفون على أنهم عثمانيون!!

وإن هذا الانقسام الطويل — على إثر فتنة إمام ووالي — هو الشاهد التاريخي الواضح الذي يؤكد لنا صحة قول الشيعة بضرورة أن يكون الإمام معصوماً، بل ويدل هذا على أن قولهم منطلق فطري..

إذن فالنفرة في أخطر صورها قد تسبب الخلاف والشخ وتكسر المسطرة الاجتماعية !!

المنصة القرآنية:

وهنا توجه وجوهنا إلى المتحدث عن العصمة من منصة القرآن الكريم:

{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ}.

وفي مقام التفسير نقول: إن طاعة الله عز وجل لا تأتي من أنه فوق كل شيء وأنه صاحب الجبروت والعظمة فقط، بل لأنه لا يحيد بك عن العدالة فهو العادل في كل أمر يدعو إليه أو ينجرك عنه بالإيمان بالعدالة المطلقة ثمرتها العقلية هي الطاعة المطلقة، ثم إن امتداد العدالة الإلهية في قوله وأطيعوا الرسول فيكون قوله وأولي الأمر منكم من باب الامتداد للعدالة الإلهية والمحمدية، وهذا ما يعني بالضرورة أنهم أولي عصمة، فإنه إذا كان معصوماً سيكون عادلاً بالعدالة الدقيقة؛ إذ لو لم يكن معصوماً فلن يكون عادلاً.

ويقول تعالى على لسان إبراهيم الذي سره أن أوتي مقام الإمامة وبدافع المسرة قال: {... قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَهِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}.

وليس معنى الظلم هنا الذنب من الكبائر أو الصغائر بل هي بالمعنى اللغوي وهو وضع الشيء في غير موضعه على نحو يعد خطأ عرفاً وقابل للملاحظة (1) فهي تشير إلى الخصيصة الثانية للإمامة وهي أن الإمامة امتداد للحكمة أيضاً مضافاً إلى أنها امتداد للعدالة أيضاً بموجب هذه الآية وسابقتها.

القرآن بين الترائي والرؤية:

إن الرؤية القرآنية لا يصل إليها كل إنسان {وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم}، فالموجود عند غير الراسخين في العلم هو ترائي كما تراء لبعضهم أن الإنسان مُسَيَّرٌ ومجبور من بعض الآيات، وكما تراء لبعضهم أيضاً أن الأنبياء والرسل غير معصومين حتى عن الكبائر لبعض الآيات الأخرى.

وبهذا نصل إلى حديث آخر للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام فقد كان يستقبل المشبهين والمحرفين في مجلس المأمون ويعمل على كبتهم وإخراص ألسنتهم ولكن بالإسلوب المنطقي والعلمي ..

تقول الرواية قام إليه ذات يوم علي بن محمد بن الجهم وقال يا بن رسول الله صلى الله عليه واله أتقول

قال بلى..

قال فما تعمل في قول □ { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى }.

وقوله: { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ }.

وقوله في يوسف: { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٍ وَهَمَّ بِهَا }.

وقوله لنبيه صلى □ عليه واله: { وَتَخَفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ }.

قال له الإمام الرضا عليه السلام: ويحك يا علي اتق □ ولا تنسب إلى أنبياء □ الفواحش ولا تتأول كتاب □ برأيك فقد قال □ تعالى: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ }.

أما قوله عز وجل في آدم { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } فإن □ عز وجل خلق آدم حجة في أرضه وخليفة في بلاده ولم يخلقه للجنة وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتم مقادير أمر □ عز وجل فلم أهبط إلى الأرض وجعل خليفة عصم في قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ الْعَالَمِينَ }.

وأما قوله تعالى: { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } إنما ظن أن □ عز وجل لا يضيق عليه رزقه ألا تسمع قوله وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أي ضيق عليه ولو ظن أن □ عز وجل لا يقدر عليه لكان كافرا.

وأما قوله في يوسف { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٍ وَهَمَّ بِهَا } فإنها همت بمعصية وهم يوسف بقتلها إن هي أجبرته لعظم ما داخله فصرف □ عنه قتلها والفاحشة وهو قوله كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء فالسوء القتل والفحشاء الزنا.

أما محمد نبيه صلى □ عليه واله وقوله عز وجل: { وَتَخَفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ } فإن □ عز وجل عرف نبيه أسماء زوجاته في دار الدنيا وزوجاته في دار الآخرة وأنهن أمهات المؤمنين وواحد ممن سمي له زينب بنت جحش وهي يومئذ تحت زيد فأخفى صلى □ عليه واله اسمها في نفسه ولم يبده لكيلا يقول أحد من المنافقين أنه قال في امرأة في بيت رجل أنها أحد أزواجه وأمهات المؤمنين...".

إضاءة وتوضيح:

فالإمام عليه السلام أراد أن يقول لأي من أصحاب هذا المنطق أن على الإنسان أن لا يفتح ركوته في غير إنائه وأن الوصول إلى حقائق القرآن بحاجة إلى رد بعض آياته إلى بعض زائد على التأمل وإعطاء كل كلمة حقها، لهذا فإن هؤلاء المتحدثين تركوا كلمة في الأرض من قوله تعالى: { إني جاعل في الأرض خليفة }، وكأنها لم تكن !!

على أنها تتحدث عن نبوة وإمامة خاصة بالأرض أي أنه حجة في الدنيا وليس بحجة في العالم السابق على ذلك، بل إن ذلك العالم ليس بحاجة إلى حجة من قبيل آدم عليه السلام، وإنما يحتاج العصمة من هو حجة، وهذا يعني أن العصمة ليست لطفًا بالإمام أو النبي فقط بل إنها لطف بالعباد الذين يقتدون به ويسيروا خلفه، وإلا لتقسموا ولاختلفوا بمقدار ما يبدو منه من تصرفات لا يمكن تمييز الصائب منها من الخائب !

وإذا لم يكن هناك حجة فليس هناك تكليف بالضرورة، لأنك متى قلت لا يوجد تكليف أي لا يوجد حجة والعكس

وكذا فيما يعود إلى ذي النون فإن كلمة الـ(القدر) تأتي بمعنى التضيق في القرآن العزيز، فذا النون ظن أن عمله لا يتبعه أثر وضعي وهو التقدير والتضييق في الرزق، وهو ما جاء في الآية الأخرى {فقدر عليه رزقه}، وهذا هو الدليل القرآني التي استند إليه الإمام الرضا عليه السلام، ثم أتبعه بطعن فكري على المتحدث وأشار إلى أن البناء على ظاهر الآية سيقودنا إلى القول بنسبة الكفر إلى ذي النون وليس المعصية؛ وذلك لأن من يقول أن □ لا يقدر عليّ ولا يستطيع أن يفعل بي كذا وكذا فهو كافر ومن المحال أن ينسب الكفر إلى الأنبياء !!

وأما بخصوص يوسف الصديق فقد أبهتهم الإمام عليه السلام بالتركيز على ما غفلوا عنه وهو أن □ عز وجل ذكر أمرين وهما السوء والفحشاء ولو كان فعل الاثنيين — زوجة العزيز ويوسف — متجانسا لكفى أن يذكر الفحشاء فقط .. زد على ذلك أن القرآن ذكر هذه الصرفة بعد الهمة مباشرة وقبل أن يلفيا سيدها عند الباب وهذا ما يقطع طريق التأويل على القائل بأن السوء هو الضرر الذي سيحصل له والجزاء الذي سينزل به من قبل العزيز مضافا على أنه قد سجن والسجن ضرر ولم يصرف عنه !!

والحمد □ رب العالمين أولا وآخرا